الكتابة النسوية.. وإعادة إنتاج الذات
قراءة نقدية في السيرة الذاتية لإشراقة مصطفى
(أنثى الأنهار.. والدانوب يعرفني)

The Feminist Writing and Self Reconstruction
Critical Reading of Ishraqa Mustafa's Autobiography, (The Woman of Rivers and The Danube Knows Me)

د. عباس عبد الحليم عباس

Dr.Abbas Abdel Halim Abbas

الجامعة العربية المفتوحة/ الأردن

Arab Open University/ Jordan

E-mail: a_abbas@aou.edu.jo

أ.د. حسين لفته حافظ

Prof.Dr. Hussein Lafta Hafez

مركز دراسات الكوفة \ جامعة الكوفة

University of Kufa\ Kufa Studies Center

E-mail: Altamy176@gmail.com

الكلمات المفتاحية: مذكرات، نقد أدبي، نسوية، بناء الذات، تحقيق الهوية.

Keywords: memoir, literary criticism, feminism, self-construction, identity realization

الملخص

تمثل السيرة الذاتية للكاتبة السودانية إشراقة مصطفى حامد محاولة سردية لعذابات المرأة في السودان خصوصا، وفي العالم العربي على وجه العموم، وقد أنجزت إشراقة سيرتها الذاتية بجزأيها في محاولة منها لإعادة إنتاج الذات وفق هذه السيرورة الحياتية التي مثّلت قدر المرأة العربية في وجودها وصراعها من أجل تحقيق ذاتها وتأكيد هويتها، في مجتمع عربي ذكوري طالما همّش هذه الذات، وقمع تلك الهوية.

ففي الجزء الأول من سيرتها (أنثى الأنهار-2015) يسعى البحث لإجمال الصورة القمعية التي بثتها إشراقة في ثنايا هذا الجزء، وتأكيد ذكورية المجتمع الذي عانت منه في تفاصيل حياتها، واستعراض صمود المرأة أمام كل صنوف التهميش والإقصاء.. في تحد صارخ للظروف الإنسانية الأشد قسوة من أجل الحصول على الثانوية العامة بعد خمس محاولات، ومن ثم الدخول إلى الجامعة.

كما هدف البحث من تحليل الجزء الآخر (الدانوب يعرفني: الوجه الآخر لسيرة الأنهار-2017) إلى توضيح كيفية إعادة إنتاج الذات، وتحقيق الهوية، عبر مزيد من التضحيات والصمود أمام تيارات الحياة وأمواجها، من خلال الرحيل إلى فضاءات غريبة خارج الوطن، إلى النمسا الغريبة قلبا وقالبا، حيث تعمل عاملة نظافة في طريقها لتصبح أستاذة جامعية.. للوصول في نهاية الأمر إلى تحقيق نجاحات شخصية واجتماعية وإنسانية للمرأة العربية، تعزز من قيم تضحيتها وصمودها، وتشرح رحلتها المدهشة وهي تحارب الانهزام والفشل، في محاولة لإعادة إنتاج ذاتها، على كل المستويات.

Abstract

The two memoirs by the Sudanese writer Ishraqa Mustafa Hamed are narrative attempts at rendering the suffering of women in Sudan in particular and in the Arab world in general. These memoirs represent an attempt at recreating the struggle of Arab women to achieve self-realization and to assert their identities in Arab masculine/patriarchal society that has always marginalized and suppressed the female identity.

Firstly, this study tackles the first memoir *The Woman of Rivers* (2015), outlining the oppressive image that Hamed presents of her society, detailing the author's suffering in her patriarchal society and elaborating on the steadfastness of women in her society who confront various forms of marginalization and exclusion. Hamed's narrative represents a clear defiance of the severe inhuman conditions she faces in order to obtain her high school diploma after five failed attempts, but finally entering university.

This study also tackles Hamed's second memoir, *The Danube Knows Me: The Other Face of the Biography of Rivers* (2017) by examining how the author proceeds to recreate the self and to achieve self-actualization through sacrifice. She confronts the difficult currents and waves of life in a foreign land, Austria, where she works as a cleaner on her way to becoming a university professor. She achieves personal, social and human successes as an Arab woman through her sacrifice and steadfastness. Hamed narrates her amazing journey, fighting failure, in an attempt at reconstructing herself on all levels.

المقدمة:

ترى إشـراقة مصـطفى حامد، بنت السـودان المتعِب المتعَب، أن سـيرتها الذاتية تتوزعها المتناقضات، رحلة التكوين، ورحلة الكيان، رحلة الصبر والجمر والغبار في بلد أتعبه الفقر والقلة والعوز، في الوطن المجروح حد الوجع، حدّ الحرب.. حد الجنوب الذي يبتلع أبناء الوطن قبل الهروب إلى بلاد البياض والبرد والجليد إلى الشـمال، حيث نسـتعيد مصـطفى سـعيد في (موسـم الهجرة إلى الشمال) ولكن بوجع مختلف تماماً عن وجع الطيب صـالح، وجع أنثوي يعتصـر قلبها المرهق، قلب إشـــراقة مصـــطفى التي عرفت الكتابة حين عرفت الحب، فكتبت (أنثى الأنهار) بمثابة الجزء الأول من سيرتها الذاتية، سيرة الفتاة السودانية، ابنة مدينة (كوستي) حيث سماحة الناس وبسـاطتهم وفقرهم : ((كنا أسـرة مسـتورة الحال، وكان أبي يعمل موظفاً بوقاية النباتات، كنت المدللة باعتباري الكبرى، كانت لنا حجرة وأمامها برندة، وإلى جوارها حجرة جدتي التي كنت غالباً ما أشـاركها أنفاسـها، على سـرير بالجوار.. تلك الطفولة العذبة حفرت في ذاكرتي.. ابتسـم لها كلما طـاف مـا حـدث في حيـاتنـا من تغيرّات.. التحولات الاقتصـــــادية التي طـالت البلاد وعرضها.. فالحال لم يدم كما تمنت مراكبي))[1]

حيث يتزوج الأب من امرأة أخرى، وتسـتمر الأم لتصـمد مع أفراخها الأربعة، ثلاث إناث وذكر واحد، الذي ابتلعته حرب الجنوب، الحرب التي قسـمت البلاد والعباد، وتزداد علاقة إشـراقة بجدها وجدتها قوة وصـــــلابة، وتزداد قوة ملاحظتها لتحولات المجتمع من حولها: الفصـــــل بين الذكور والإناث، الحديث عن الجن، النيل وعلاقته بالحياة والموت،.. مســـــاعدة الأم في بعض شـؤون البيت، وهي الأم المريضـة المحتاجة إلى يد المسـاعدة ((عرفت النار في عمر لم يتجاوز العشـر سـنوات، النار التي حفظت قصـتها أصـابعي، وحاورتها بعد أقل من عام، حين تعلمت بإتقان أن أعوس الكسـرة (أي أخبز الخبز) كيف لا، وأمي التي كانت كثيرة المرض لا تقدر على أن تحل محل أمي حليمة (الجدة) كما أن جسـد جدتي ريا النحيف لا يحتمل أكثر من سـاعتين من الزمن، لتقوم بواجب ابنتها المريضة))[2]

النار والتقاليد الحارقة:

ولعل النار الأخرى التي لا تنساها إشراقة هي (نار التقاليد والإرث الجماعي) فهي تخص تجربة (الختان) بصفحات لا تنسى، في صورة اعتراضية احتجاجية على ممارسة تقع على طفلة، لا حول لها ولا قوة ولا قرار، لكن وعيها يختزن هذا العنف بمخزن الذاكرة الطويلة، وكأني بها تمثل ذاكرة الجماعة! ذاكرة التاريخ الأنثوي الممتد كما النيل. تتذكر هذه الحادثة بحزن وأســـى وعتب شفيف، تظهره لجدتها الحبيبة حليمة، وهي تحتفي بدمها وألمها: ((كيف لأمي، كيف لأمي حليمـة أن تحتفي بـألمي؟! كيف لأمهـاتي وخـالاتي أن يحتفين برائحـة دم طفولتي؟ كيف فعلت

حبوبتي ريا (جدتها لأمها) ولم تسمع نشيج الشامة التي ترقد على أنفها وهي تهمس لها: أنّ هذه (العنبة) التي جزّوها من نبتة طفولتي لا تختلف كثيراً عن شامتها الشقية على أنفها الذي يشبه منقار الحدأة !!

كيف لهن وهن تألمن كثيراً، أم أنه استمراء الألم؟

هنّ الحبوبات هكذا دائماً ماطرات بالمحنه، وفاتحات لأبواب الرحمة، وأيضاً فاتحات لأفخاذ الصغيرات، لتلك المرأة ذات الشنطة الحديدية التي تراصت فيها مشارط مختلفة لقص الحلم الإنساني في اللوعة والصبابة، كيف هي نفسها تأمر الغولة بأن تجزر مدخل الخصوبة حين يشتهي المطر جزر نديهة النساء.

حشرجة الموس، لفة المشرط الغائص في لحمي الغض، فيما صوت المرأة الأجش لا زال يزمجر: ما تخلّي حاجة فيها، (اللالوبة) دي فيها رجس الجن !!)) [3]

كيف؟ وكيف؟ وكيف؟ أسئلة مخنوقة، مقهورة.. لم ولن تجد أذنا تصغي عندما يحين وقت القطاف.. حين تغدو الأمهات والجدات الرحيمات بلا رحمة، فتظل ذكرى الجرح والدم مدى الأيام والسنين.. إن سرد هذه الحادثة يشير إلى رغبة عميقة في إدانة إشراقة لمجتمعها وما سببه لها من ضرر صحي ونفسي، لم تستطع نسيانه حتى وهي في الخمسين من عمرها: ((بعد طعني حقنة المخدر، جاءني صوت بنت الجيران خافتاً إلى أن تلاشى مع تقطيع جزء من البظر وجزء من الشفرين الصغيرين والكبيرين، ثم رأيتها تعد إبرة لتخيط ما قطع منّي.. كنت أقاوم لأرى ماذا يفعلن بي.. سألتُ أمي حليمة عن تلك البلحة: أين قبروها؟))[4] نعم فهي تدرك جحم الوأد والموت في مثل هذا العمل، وما يصحبه.. وتدرك أنهم نبّهوا وعي الفتاة الصغيرة على كينونة الأنوثة فيها، هذه الكينونة التي أرادوا أن يحاصروها، بل يقبروها، وللقبر دلالة لاتخفى في هذا السياق: ((في الليل بدأ النتح، صحت العقارب التي لم يروضوها، لمست بيدي الصغيرة جرحي، تلك الخيوط النابلة من ترويض عصافيرنا التي كفت ليلتها عن الزقزقة ! رائحة الحناء التي طربت لها طفولتي اختلطت برائحة دمي، ألمي وصراخي يرتد صداه..))[5]

من ذاكرة الألم:

وهنا نتذكر التجربة ذاتها عند كاتبة نسوية أخرى من أسلاف إشراقة مصطفى، إنها نوال السعداوي التي تناولت من قبل تجربتها الذاتية في (ختان الإناث) لتقدم لنا تصويرا مأساويا لهذه التقاليد، تعرض من خلاله إدانتها العميقة لما تتعرض له الفتاة الشرقية من ألم وعذاب جسدي ونفسي جراء هذه الممارسة الاجتماعية التي تكسر الأنثى وتزرع فيها ذكرى مرعبة عبر استئصال هذا الجزء الطبيعي من جسدها، بحجة تقاليد بالية، وادعاءات لا أساس لها من الصحة.

وعلى الرغم من الألم، فقد كان لهذه الحادثة أثرها الواضـــح في يقظة الوعي بالذات، وبالجسـد، وبكينونة الأنوثة، الوعي بالظلم وبالحقوق، وحجم العبث والخسـارة، الخسـارة التي يولد من رحمها الربح: ((وهكذا بدأ الترويض وما عرفوا أنّ العناد كان وليد الترويض ليمهد الطريق لفرسة تصـهل بالحقوق الإنسانية، بحق النساء في الحياة والمعافاة.. في العشر الثانية كنت فرحة بتفتح الليمون في جســـدي، كنت في حبور أزهو بأثداء الطيور على صـــدري، تأملتها بإعجاب وحنوّ على مرآتنا الصـغيرة.. واحتفيت بالطمث كثيراً، كنت أشم رائحته، كان أشبه برائحة المطر على القش، أشبه بالندى على شجرة الليمون..))[6]

تغنت إشـراقة بأنوثتها، لم تسـمح لهم بأن يقبروها، بالرغم من أنهم قبروا جزءاً منها، لكن وعيها وإدراكها أكسباها العناد والمطالبة بالحقوق، وعدم الرضـوخ أو الاستسـلام. ولا شك أنّ هذه الجرأة والقدرة على البوح والاعتراف الصـــريح على صـــفحات ســيرة ذاتية لفتاة الأنهار دلل على إحدى القيم الجوهرية لهذا الجنس من الكتابة الإبداعية (السـيرة الذاتية النسـوية) ومثّل في الوقت نفســه، وسـيلة مهمة من وسـائل توثيق العنف والقهر الاجتماعي الذي مورس بحق المرأة، وهذا الحقل الكتابي منح المرأة العربية منصـــــة حقيقية للبوح بانتهاكها، وانتهاك أنوثتها، مثلما منحها منبراً صلباً للإدانة والاحتجاج.

وربما نذهب مع بعض النقاد إلى مديح الألم – نقديا – لأن هذا الألم هو الذي ســـوّغ لصـاحبته أن تسـرد حياتها بهذه الجرأة، وهذا البوح، فليس هذه السـيرة وحدها التي تدين إلى الألم باعثاً ومحركاً، فقد ((جنحت ســير نســائية عديدة إلى التعبير عن الألم مكوناً بارزاً من مكونات السرد السيري، وتشعبت صنوف الألم: ألم الفقد والموت (على الجسر / لعائشة عبد الرحمن) وألم القيود الاجتماعية (رحلة جبلية / لفدوى طوقان) وألم الاحتلال (الرحلة الأصعب / لها أيضاً) وألم السـجن (حملة تفتيش / للطيفة الزيات) وألم المرض (أثقل من رضـوى / رضـوى عاشـور) وألم حرية الإبداع (المحاكمة / ليلى العثمان) تتنوع جملة الآلام، وتتجذر في أرجاء الســـير الذاتية، حتى يصـــح أن نقول إن الألم قوام الســـيرة الذاتية النســـائية، وذلك على نمط قول عبد الرحمن صدقي، الناظر فيه لفلسفة فريدريش نيتشه:

الألم قوام الحياة، ولا يعرف الحياة من لا يعرف الألم))[7]

وقد عرفت إشـراقة مصـطفى الألم طيلة سـيرتها، منذ الطفولة، وما بعدها.. فبعدما روت الألم الجســدي والنفســي الناجم عن تجربة الختان المهينة، تســرد ألمها ومعاناتها في دراســتها الثانوية، تلك التي تقدمت لها خمس ســنوات على التوالي، في تحد مع نفســها للحصـــول على مجموع درجات يؤهلها لدراسـة الإعلام في الجامعة، وفي كل مرة تخفق تعيد المحاولة كَرّة أخرى،

برغم ظروف الفقر والعوز والحاجة، وقد كانت المدرسة بداية الوعي السياسي، والأحزاب، والقراءَة والمعرفة.

كلما يشتري كتاباً يكتب على صفحته الأولى: إلى ابنتي إشراقة. ((فكان أبي أول من نبّه عقلي الصغير إلى الكتب وأهميتها... عرفت طعم الحنان الأبوي، والاهتمام بالتعليم، وغرس بذور المحبة والاطلاع، كتب ظلت في ذاكرتي... كانت لأبي مكتبة، اكتشـــف أني أســـترق الكتب وأتصفحها يوم أن بكيت كثيراً بعد أن قرأت كتاب (الاجنحة المتكسرة) لجبران خليل جبران، سرقته من مكتبة أبي بعد أن بح صوته بأني ما زلت صغيرة لأقرأ هذه الكتب)) [8]

وإذا تجاوزنا هذا الإصـرار على القراءَة، والتعلق بالكتب، فاننا نجد (الجدة) بوصـفها إمرأة هي أيضاً تصر على أن ((البنات لازم يقرن (يقرأن))) [9]

الوعي القادم:

وبدخول إشراقة إلى الجامعة لا يتفتّح وعيها المعرفي فحسب، إنما يتفتّح وعيها السياسي أيضـاً فتعرف ما هي الأحزاب، وتشـارك فيها، وتقرأ شـعرها السـياسـي، وتدرك ما هي الحرب: ((كنت أســمع أبي يحادث جارنا عن الحرب في جنوب الســودان، أرعبتني الفكرة ! مجرد الفكرة أرعبتني، ولم أتصـور أن الحرب بهذا القبح الذي لا مثيل له، وكيف يكون الإنسـان قادراً على أن يقتل))[10]

لكن الخلاص من هذا كله معروف لديها، ولدى كثيرات من النسـاء اللائي طحنهن الفقر والجهل: إنه العلم، وإنها المعرفة: ((لا مخرج سـوى المعرفة، ولا نافذة غير العلم، ألم تشـعل أمنا حليمة فانوساً لنذاكر دروسنا؟ وقولها لنا: الراس بيكون صـافي في الفجر، وهي التي قالتها بلغتها البسـيطة: المعرفة طريق خلاصـكن))[11] نعم لا بد من المعرفة، الدراسـة، الشـهادة، فقد قضـت إشـراقة خمسـة أعوام في سـبيل الثانوية العامة، حتى حققت حلمها. لذا فإن سـيرة (أنثى الأنهار) هي ســـيرة كفاح المرأة العربية في أفريقيا لمواجهة قهر المجتمع وذكوريته، ولمواجهة حياة الفقر والكدح، إنها سيرة مميزة بما تحمله من قدرة المرأة على التحمل والتحدي والاستمرار... لدرجة أن تعمل خادمة، تعاني أقصى وأقسى أشكال التعب والألم والشقاء– جسديا ونفسيا – كي تتمكن من إتمام دراسـتها في بلاد الغربة، كما سـيرد في الجزء الثاني من سـيرتها (الدانوب يعرفني: الوجه الآخر لسيرة الأنهار).

أما (الحب) فقد كان لها منه نصيب ففي أثناء دراستها بكلية البنات بالجامعة الإسلامية، ((كانت بداية شـتاء... ذلك العسكري الوسيم الذي سكن في حيّنا، كنت عاشقة له، كان يحبني، كان يومها ضـمن الوردية التي كان لها أن تصـدّ المظاهرات وتفرقها بالهراوات، لم أتراجع عيناه تمنحني القوة، ووهو واقف لا يستطيع فعل شـيء ضـدنا، اقترب زميله منّا مهدداً، لم أتراجع))[12]

لقد ظل هذا الحب صـامتاً، حيياً حائراً، لا يشـوبه وصـال، ولا لقاء وهذه مسـألة مهمة في حياة المرأة العربية، السـودانية تحديداً، وربما هي نموذج لنسـاء عربيات كثيرات، مررن بالحب مرور الكرام، لم يجرؤن على المزيد من البوح، على التفاصيل، على الحفر داخل رغبات الروح وحاجات الجسد، وهذا يصيب المتلقي بخيبة الأمل، أو ما يمكن تسميته بـ (خيبة القراءَة) إذ غالباً ما ينتظر القاريء من الكاتب ((كشـف المسـتور، وتسـليط الضـوء على ما خفي من الأمور، وتقديم حقائق حية عن الأحداث، وهذا النوع من الكتابة هو جنس بيوغرافي مميز))[13] يكمن تميّزه في عمق عرضـه للمشـكلة، وجرأته في طرح جوانبها، ومواجهته للثقافة السـائدة في الحديث عنها بشـفافية ووضـوح، غير أن حالة إشـراقة (أنثى الأنهار) لا تمنح مثل هذا الهامش من الحرية والبوح نتيجة تقاليد اجتماعية ليس من السهل تجاوزها، من ناحية، ولأن هذه السيرة بطبيعتها لم تكن ذات نزعة رومانسية بقدر ما كانت تمثل سيرة كفاح، ونحت في أعماق صخر الحياة ذاتها.

اعتمدت إشراقة على نفسها، وأعادت دراسة الثانوية للمرة الخامسة، تدرس وتبيع للطالبات السندويشات والزلابية ((كنت وما زلت أعي ضرورة دحر اليأس في مرحلة من مراحل الحياة، لكنه كان كريماً يجد أبوابي المفتوحة شـراعات لسـفن الأمل، وينحشـر دونما انتباه ليتوهج ويخلق سـيرة الكفاح الطويل المرير. عمي محجوب يشـد من أزري بسـرده تجربته في دراسـة التمريض بصـبر ومثابرة، مؤكداً أن النجاح سيأتي ويطرق أبوابي)) [14]

*** على أبواب الجامعة...الوعي بالهوية**

بدخولها الجامعة عام 1985 تبدأ إشـراقة بدراسـة الإعلام، ويبدأ وعيها بالنضـج أكثر فاكثر، ترفض إجبارها على غطاء الشـعر، وتقرر التحرر من الانضـمام إلى حزب يقيد حريتها، وترفض الإسلام السياسي، وتصدر صحيفة حائطية مع مجموعة من الزميلات. وتصاب بالملاريا الذي يهّد جسـدها وتزداد الأمور توتراً لدرجة أن يتم منع الطالبات من التعامل معها خشـية من آرائها السـياسـية وتأثيرها عليهن، بل وصـل الأمر حدّ (إهدار دمها) لكن ذلك كله لم يمنعها من التفاعل مع الحركة الطلابية، ولم يمنعها من تسـجيل العنف الذي واجهته داخل الجامعة هي والمنتمون إلى بعض الأحزاب المعارضـة، ونتوقف هنا لنرصـد ما عانته المرأة العربية، الشـابة الجامعية وهي في طريقها لبناء مسـتقبلها ومسـتقبل مجتمعها، لقد كان هذا العنف والقمع والظلم يشـكّل جزءاً مهما من حياة المرأة العربية، وهو امتداد لموقف المجتمع الأبوي الذكوري الذي لم يقدّم لهذه المرأة معاملة تليق بمكانتها كصـانعة مسـتقبل، ومربية الأجيال... وهو ما تم تسـجيله ورصـده في هذه السـيرة الذاتية وغيرها، ولولا مثل هذا الجنس الكتابي لما تم توثيق هذا التأريخ الاجتماعي الذي مثّل وضـعية المرأة العربية، في زمان ما ومكان ما، لتغدو ((السيرة الذاتية وثيقة

ثقافية ومصـدر معلومات لأي شـخص يبحث عن مفهوم أفضـل لإيديولوجيات الثقافة التي تتبع منها السيرة الذاتية))[15]

أو يبحث عن الرواية غير الرسـمية للعذابات النسـوية، والعنف والتهميش الذي واجهته الفتاة العربية في هذا المجتمع الأبوي الذكوري. وقامت بتوثيقه في سيرتها الذاتية، فالكاتب ((يلجأ إلى السيرة من أجل تقديم تصـوراته وفلسـفته النهائية حول العالم، وموقفه من الأحداث والأفكار، فتكون السيرة بالتالي الأكثر قدرة على التعبير عن مواقف الكاتب في الماضـي والحاضـر، وعلى تصوير اللحظات الحاسمة في تاريخه كفرد وكجماعة))[16]

وما هذا العنف، وهذه المواجهات إلا جزء من تلك اللحظات الحاسـمة التي أرادت إشـراقة مصطفى أن تقدمها لنا: ((حال دخولي الكلية، أخبرتني زميلاتي في قسم الإعلام بأن رئيس القسم يريدني في مكتبه، وأن الشـرر يتطاير من عينيه، ذهبت ناحية مكتبه، وتصـادفنا في بهاء القسـم الخلفي، بغضب سألني: عايزة تاني تعملي شنو؟ شيوعية وقليلة أدب !! رديت له بصلابه: كيف لك أن تصـفني بقلة الأدب؟ انهالت يده على وجهي، وكان هذا ردّه الذي عبّر به عن سـياسـة العنف التي عايشـتها على مدى أربعة أعوام باعتباري الكادر الخطابي للجبهة الديموقراطية في الكلية))[17]، لكن إشـراقة كانت مثالاً للفتاة التي عرفت دربها وقضـيتها، ولم تكن لتعود أدراجها عما رسمت وخططت له من مستقبلها، كانت رمزاً للمرأة العربية في بيئة كانت على الدوام تغتال حريتها وتعمل على تهميشها، واغتصاب خياراتها. وهذه الصورة تعكس ثقافة وعقلية مجتمع كان يقسو على المرأة دون رحمة.. لكن كان على المرأة أن تتحدى وتصمد وتواجه، وهو ما تمثله سيرة إشراقة مصطفى (أنثى الأنهار) سيرة التحدي والصمود في وجه الفقر والمرض والتهميش، سيرة التضحية من أجل الطموح والخيارات التي اختارتها المرأة العربية في بيئة كبيئة السودان، وهذا ما يفسّر ويشرح لنا: لماذا تأخرت المرأة هناك، ولماذا أُقصيت عن تنمية ذاتها وبلدها، ولماذا كان عليها أن تبذل التضـحيات الجسـام لتخرج نفسـها من ظلمات القهر والتخلف، إلى أنوار الحرية وتحقيق الذات.

كانت الدرب مليئة بالأشـواك، حتى بعد التخرج: ((كنت أظن بأني وصـلت إلى بداية طريق النجاح، ولكن تيقنت بعدها أنّ قدري قُيّد في سـاحات معارك مسـتمرة لأجل البقاء. بقيت قرابة عامين أقاوم تشردي، وأبذل قصارى جهدي كي أجد مكاناً آمنا لنا جميعاً))[18]

ضوء في آخر النفق:

لكن ثمة فسـحة من الأمل، وجدت إشـراقة عملاً مؤقتاً كسـكرتيرة، وأتاح لها هذا مكانا تسكن فيه، وأملاً بأن الغد سيكون أجمل حين تجد لها عملاً في الصحافة، لكن مرضـها يشـتد

ويشتد، لدرجة أن غابت عن الوعي: ((الملاريا تمت معالجتها، لكن التيفوئيد يحتاج إلى زمن، أما الوساوس فلا بد من عرضي على طبيب نفسي ليعرف ما بي))[19]

توزعت روح إشـــراقة بين إحباطات العمل والمرض وهم الســـياســـة والانقلابات، وحتى الحب، فالحبيب كان ضـابطا للسـجن، وهذا ما زاد ألمها ألماً ((هل التقينا في الزمن الخطأ؟ زمن أخطاء محمد شـكري وأخطاء القادة الفادحة؟ التقينا في زمن الانقلابات والدبابة.. أحببته بجنون، حد شـــوارع المظاهرات، الثورات، الاعتصـــامات والغازات المســـيلة للدموع))[20] ومع ذلك فإنها استثمرت مشاعر الحب لديها لتزداد قوة وصلابة وإصراراً على متابعة دربها: ((أليس الحب نفسه من يمنحنا روح المقاومة؟))[21]

لا شـك أن هذا التنازع، أو قل التجاذب بين أحاسـيس متضـادة هو انعكاس لبحث عن حقيقة الذات، عن هويتها، عن الرغبة في توازنها، الأمر الذي يحدث فيضـــاً نفســـياً لدى كاتبة السيرة فيتسامى السرد، ويتحول من التاريخ إلى الفن، وهو محاولة للارتفاع عن آلام (التاريخي) إلى أحضان (الفتي) الذي يريح النفس ويرضيها، فيرتفع صوت الشعري في ثنايا السردي:

أنت من أحببت
وهل أحببتني يوما؟
ما غيّر نهرك مجراه
ولا انطفت ذاكرة الانتفاضات
أنا ابنة القهر
التمرد
البيانات
الأناشيد
والأحلام المهجورة
تُعري انكسار الحلم
تبلّه بقطرات الهزيمة
وتتوارى الكتابة
تغسل خطاياها
تعدّل من طرحتها لزوم الوقار
وتذيع البيان الأول
الكتابة يا عشب الروح.. هي حكاية تموز.[22]

(فتموز) هو رمز الخصب التجدد والانبعاث والميلاد الأبدي..لذا لا ينسى كاتب السيرة الفنان والمبدع الذي بداخله، وخاصة حين يلوذ بمخيلته ليصنع عالما له وحده...ولقد دار حديث طويل بين النقاد عن علاقة السيرة بالفن، بالرواية خصوصاً، وبصرف النظر عن نتائج هذا النقاش، لا يمكن أن نتجاهل عنصر الفن في الكتابة السير – ذاتية، مهما كانت نسبته.

*** ثمن الوعي**

((أن تكون شهادة درجة الشرف في الإعلام محض ورقة تتحكم فيها أهواء السياسة، وتلغيك من دائرة المهن التي تحترم مجهودك وإنسانيتك، وأن تكون جريرتك ثمن وعيك السياسي المختلف مع توجه سياسات السلطة في تمكين من تريدهم، وإقصاء من لا تريدهم.. كانت حسرتي لا توصف))[23] وكان لا بد من مخرج، والتفكير بإنجاز دراسات عليا، كان تمويلها عن طريق قيامها بإعداد سندويشات الفول وبيعها لزملاء الدراسة، وعمل الشاي والزلابية لتوفير المصاريف، ولا سيما أنها حصلت على قبول الماجستير في هذه الأثناء من جامعة فيينا، وظلّت تردد قصيدة توفيق زياد:

أهون ألف مره

أن تدخلوا الفيل بثقب إبرة

وأن تصيدوا السمك المشوي بالمجرة.

أهون ألف مرة

من أن تميتوا باضطهادكم وميض فكرة

وتحرفونا

عن طريقنا الذي اخترناه

قيد شعره.

وبذا تلتقى السياسة بالمقاومة، ويندغم الطموح بالتحدي، والصبر، والمضي قدماً مهما كان الثمن.. هذه هي إشراقة، إمرأة من أرض النيل، أنثى الأنهار تبرهن على (قدرة) المرأة العربية (وقدرها) وتعرض قضيتها الاجتماعية والسياسية والفكرية، والحياتية عموما، إنها نموذج إنساني نسوي يقول الكثير في هذه السيرة الذاتية، السيرة التي تحكي لنا وحشية الفقر، وطغيان السياسة وتغولها ضد أي معارضة، تحكي الآلام والجراحات في طريق تحقيق الذات، والمستقبل ؛ لأن ((السيرة الذاتية هي المجال الأدبي الخاص للتعبير عن الهوية الشخصية المفترضة من خلال إعادة التفكير كتابةً في الماضي والذكريات والتطورات، اعتماداً على تجربة الحياة في الحاضر، فإن المرأة التي تقوم بهذه السيرة تسعى إلى بناء هوية نصية منسجمة انطلاقاً من درجة وعيها

النقدي بمسـار حياتها، تعلو على مظاهر الدونية والاضـطهاد والقمع، وصـوتها السـردي في كل ذلك صوت له علاماته اللفظية الظاهرة التي تدل عليه، بصورة واضحة))[24]

وتصـنع له هويته وكينونته وإنسانيته، هذه الإنسانية التي تحيل العمل السير – ذاتي إلى نمط من الكتابة الروائية وفعلها البطولي، فالمبلغ الذي تبرّع لها به شـخص كريم من أجل السـفر دفعت به إلى العم سعيد من أجل أن تكمل ابنته رسوم دراستها: ((أشرقت عيناه بفرح أعرفه، فقلت في سـرّي: بين رقراق دمعه كانت تلك السـنوات الخمسـة التي قاومت معي قهر الظروف لأنجح وأدخل الجامعة تمنحني الابتسـام والرضـا، ومرّ بي لحظتها كل الذين سـاندوني، وتناهى إلى سـمعي صـوت خالتي نورة القصـيرة تبتهل في صـلاة المغرب متمنية لي النجاح. ابنة عم سـعيد كانت انتصـاراً لإنسـانيتي.. كان الهم يجلدني بسـياط الواقع، وانحصـرت كل أحلامي في أن أجد ولو حجرة واحدة ننام عليها (أمي وأخواتي).. أمي التي كان يقتلها الهم على وحيدها الغائب في الحرب الضروس بجنوب البلاد)) [25]

بوصـولها إلى النمسا تبدأ إشراقة تعمل بنظافة البيوت، لتوفر ما تقتات به، وترسل لأمها وأخواتها من أجل تكملة بناء تلك الغرفة، وشـراء بخاخ لأبيها المريض: ((يومها كانت الدنيا برداً لاذعاً، بأصـابعي تتجمد من جرّائه، والجاكيت الذي أهدتني إياه عجوز نمسـاوية لا يدفئني بما يكفي، بل كانت تفوح منه رائحة الموت، بعد أن لبسته قلت بسرّي:

-الموت يمنحني الحياة !!

كان مهترئاً.

وحذائي الذي التقطته من الكوشـه الراقية بعد أن رماه ذلك الشـاب المسـؤول عن المبنى الطلابي الذي كنت أسـكنه، ومن حسـن حظّي أنه كان نمرة 39، أدخلت قدمي المتجمدة فيه، واكتشفت في يوم مطر عاصف أن بالحذاء خرما، فضـحكت وأنا أبحث عمن يرتق ما انفتق قبله من قلبي))[26]

وتكتب لنا عن هذا كله، لتعرض لنا قضية امرأة، عاشت في بيئة اجتماعية ثقافية عربية، عند نهايات القرن العشـرين، وهي تنتقل من ألم إلى ألم، ومن خيبة إلى خيبة، فعاشـت اغترابها حتى دفع بها وطنها إلى البعيد، إذ لم تجد لها فرصـة على ترابه، لكنها وجدت فرصـة جيدة لتحدثنا عن تجربتها، مأساتها، وتحقيقها لذاتها وهويتها، وهي تحفر في الصخر.

حتى الحب في سيرة (أنثى الأنهار) هو أحد جوانب ذلك الألم وتلك الخيبة، جرّبت الحب عدة مرات، لم تكن في أي منها تجربة حب كاملة: ((كانت أول قصـة حب في حياتي، الحب العذري الطاهر، قبل أن يقرر أهله الرحيل إلى العاصـمة، وإلى جوار الجامع التقيته ومعه أخته، فقد كان الأمر مخيفاً أن تلتقي بشـاب وإن كان من ذات الحي، قال لي سـأكلم أبي ليخطبك لي

ونتزوج ونعيش في الخرطوم.. ورغم كل المحفزات قلت له لا. صـــعقه ردي حين تابعت بأني سأواصل تعليمي))[27]

وتجربة أخرى مع الولد الأصـفراني ((كان خطه جميلاً منمقاً، وكنت حينها ضـمن فريق المدرسة، ومن يومها تعلقت عيوني في عينيه.. حين سمعت صوتك، حلمت بك زوجتي))(28)

وحدثتنا من قبل عن العســكري، ولكن كل هذه التجارب ظلت ((في مخزون الذاكرة، وفجرت أنهار الخيال، من كل هذه الحكايات التي تحتاج إلى كتاب مخصــص لسـيرة الحب في أزمنة المطر البريء))[29]

الكتابة والخروج من لجة الوجع:

ومن هنا تلجأ إشــراقة إلى الكتابة بوصــفها مخرجاً وملاذاً من وعي عميق بألم الحياة، حياة الأنثى في رحلة تغيير صـورتها ومجتمعها وأعرافه الراسـخة كالجبال: ((الكتابة كانت وظلّت ملاذي، كل انفعالاتي بإيجابياتها وسلبياتها، تخرج في كتابة، هي روحي، هي أنا.

كل هذه الآراء التي رآها وما زال يراها البعض متطرفة في جرأتها، وما زالت، أعاني كثيراً من رمي بحجارة سجّيل العقول المتحجرة)) [30]

ليس هذا فقط وإنما تعاني ككل امرأة في ثقافتنا العربية من النظر إليها كلقمة ســائغة، كجسد جاهز للافتراس، كأنثى تحت الطلب، إذ تروي لنا محاولتها للحصول على مساعدة للسفر من أحد الأثرياء، بعد أن أنجزت رسـالة الماجسـتير، فعبّر لها عن اسـتعداده لتوفير التذكرة لها: ((أثنى على اجتهادي ومثابرتي، وأني بجانب كل ذلك – حلوة – وبقليل من الاجتهاد يمكن أن أكون أحلى البنات.

وما دخل حلاتي هنا؟ قلت في ســرّي.. إلا أن حســن الظن انهار حين قدّم لي دعوة للعشاء في فندق معتبر، وسوف يشتري لي فساتين جديدة... خرجت وأنا على يقين بأني لن أعود إلى هنا مرة أخرى.. ها هي الحياة تعلمني، تعطيني الدرس تلو الآخر، دروســاً في صــعوبة الجبال، الدروب التي لا تتمهد إلا بالعزيمة والإصرار))[31]

ولكن للحياة وجهها الآخر أيضــاً، فمثلما يوجد فيها الوحوش، فثمة آدميون، إنســانيون، فقدّم لها أحدهم المبلغ المطلوب، ((وصـوت المضـيفة ينتزعني من كل هذا الدفء والحزن والألم والعبرات، وهي تنبّه بأن الطائرة ستهبط بعد قليل في مطار فيينا الدولي.

لا شيء أزيز الطائرة يقترب من الأرض، الأرض الغريبة.

الأرض التي سيعرف دانوبها حكايتنا)) [32]

***من السودان الى النمسا..حكاية "غريبة النهر"**

من نهر إلى نهر ثمة مسـافة، وثمة تعب، معاناة، بحث عن الذات، وعن الوجود، فإذا كانت إشراقة مصطفى ترى في وجودها في السودان ظلم السلطة وعنف السياسة، ترى الفقر وقلة الحيلة، ترى جسدها المهزوم بالتفوئيد والملاريا، فإنها في النمسا ترى التمييز العنصري، وأنواعاً مختلفة من المعاناة والعذاب يواجهها المهاجرون، وفي النمسا تظهر مشكلة الهوية بأجلى صورها ؛ لذا أرادت إشراقة أن يكون هذا الجزء من سيرتها الذاتية (الدانوب يعرفني) تكملة ومواصلة لمشوارها في الجزء الأول (أنثى الأنهار) فمن السودان إلى فيينا، مشوار من الكفاح والنضال والمواجهة، وتجربة إنسانية لا بد أن نفيد منها، ولا سيما في إطارها النسوي، في وقت بات لا بد لنا من تأمل هذا النمط من الكتابة، الكتابة النسوية، والدخول معه في حوار فكري وفني نقرأ من خلاله تاريخ الظلم والتعسف الذي وقع على المرأة العربية، خاصة وأن ((هناك خصوصية لما تبدعه المرأة العربية، ولا سيما إذا كان ذا صلة مباشرة بطبيعتها البيولوجية والنفسية، وظرفها الاجتماعي الخاص.. وأحسب أن هذه الإبداعات النسوية استطاعت أن تشكل أدباً تسللت أشعته البازغة إلى سواحل المشهد الثقافي الراهن.. الباحث عن هوية في زمن الشتات والتشظي))[33]

والباحث عن إجابات لكثير من الأسئلة التي يطرحها الإبداع النسوي أمام ثقافتنا المعاصرة عن أسباب وعوامل مثلت عوائق حالت دون تغيير نظرة المجتمعات العربية للمرأة، وعملت على ديمومة تهميشها وإقصائها، وهي أسئلة باتت لها مشروعيتها وضرورتها، ولا سيما بعد أن حرمت المجتمعات العربية من مساهمة المرأة لفترة طويلة في تطوير الفكر والثقافة والإبداع، مما أثر سلباً على مشروع النهضة برمّته.

ولا شك أن الصورة التي قدّمتها اشراقة مصطفى عن تجربتها في وطنها السودان، من خلال سيرتها (أنثى الأنهار) تعكس أقصى درجات الإقصاء والإحباط، لولا عزيمة كالصخر استندت إليها اشراقة في المضى قدماً نحو إكمال مشوارها العلمي الأكاديمي، عن طريق الهجرة إلى بلد آخر (النمسا) وهي تعاني ظروف فقر وعوز، لا تملك معها حتى تذكرة الطائرة.

في فيينا تبدأ القصة من جديد ((قصتي مع الدانوب قصة تنتمي إلى ملايين قصص المهاجرات والمهاجرين، قطرة في بحر الكفاح والصبر والمثابرة، وإعادة اكتشاف الذات، قصص اليأس والهزيمة والانتصارات المجيدة، قصص تحكيها سلطة اللغة والدين واللون والنوع، قصة الأطفال المولّدين من عساكر الاستعمار بعد الحرب العالمية الثانية، كبروا ومات من مات منسياً... قصة لا يمكن فصلها عن حكايات النزوح والنازحين، الهاربين من جحيم الحروب والإفقار والحكام القساة، هي سيرتي، سيرة المراكب التي غرقت في البحر.. سيرة يحكيها الدانوب

الذي يعرف كم ساندتني قلوب نمساوية تجاوزت عقدة الآخر...سيرة الحنين... سيرة الوطن الذي كحلت به عيني منعكساً على مياه الدانوب))[34]

هكذا تصف إشراقة هذه السيرة، وهي بالفعل سيرة تحكي الكثير عن الفقر والتجهيل والاعتقالات والتشريد، ومحاصرة الوعي، وخاصة وعي الأنثى، مما دفع بها لتطير نحو أفق بعيد، وهي تعلم أن الارض لن تكون مفروشة بالورود، فبالإضافة إلى شعورها وهي لا تملك شيئاً، تعاني الخوف من الأحزاب العنصرية التي تكره الغرباء، مما يعمق إحساسها بالغربة والرغبة بالبكاء والمعاناة من أجل الحصول على منحة. دع عنك الشعور القاتل بالوحدة: ((هذا جنون، ألا تكون قربي إحدى اخواتي تتوسد أحلامنا ونحكي ونضحك)) [35]

غير أن الشيء الوحيد الذي يخفف عنها هو وجود بعض الأصدقاء الذين عُنوا بها بين الحين والآخر.

وانّ كل ما مرّ معها من مشاعر واحباطات في جانب، وصعوبة اللغة الألمانية في جانب آخر، لكن إصرارها كان أكبر من ذلك كله، تواصلت مع جمعيات حماية البيئة، عملت في السكن الطلابي، فكانت تقوم بأعمال النظافة، وتعقد الحوارات مع الأصدقاء عن البيئة والسلام والتسامح والأديان والعلاقة بين الرجل والمرأة، وتحرر المرأة الأوروبية وغير ذلك... وفي أثناء ذلك ((كانت المحاضرات تقدّم بطريقة سريعة يصعب معها التقاط الكلمات، ناهيك عن المعاني... فكرت أن أعود أدراجي إلى السودان، وأنسى كل هذه الأحلام العصية..)) [36]

لكن لا مجال للتراجع، فصديقتها طيبة لم تتركها، مدت لها يد المساعدة، فبدأت تنجح في اختياراتها، ويزداد إصرارها حتى انهت الماجستير وحققت شرط القبول لمواصلة الدكتوراه.

عاملة نظافة...عبقرية الأمل:

في فصل (الطريق) كان العنوان الفرعي (من عاملة نظافة إلى الأفق العريض) يستفز فينا مشاعر الغضب وعدم الرضا من وضع عربي امتهن هذه المرأة المكافحة الصابرة، وألقى بها في مهاوي الردى، تحارب وحدها، بكل ما تملك من ألم وحزن، وعزيمة وطموح وإصرار، ألم يكن من الأجدى ببلدها السودان أن يوفر لها تلك المنحة، داخلياً أو خارجياً، ويختصر عليها رحلة العذاب هذه؟! التي لا تحياها حتى الكلاب في أوروبا ((يذهب الكمساري إلى راكب آخر، بينما أكون قد شغلت نفسي بتلك الشابة الشقراء وهي تخطف آخر قبلة من صديقها، ومن ثم تأخذ مكانها قبالتي، وهي تداعب بحنان بالغ الكلب ذا العجيزة الضخمة، أخذت ألملم جسدي المنهك كيلا يلمسني هذا الكلب، لم أكن أعرف أنها كلاب جيدة التغذية، يغذّونها، ولها طبيبها الخاص، وتأمينها الاجتماعي))[37]

ويثير هذا الاقتباس قضـية حضـارية مهمة في سـياق المقارنة بين الشـرق والغرب / بين السـودان والنمسـا، إذ تعبر إشـراقة عن شـكل من أشـكال الصـدمة الحضـارية من خلال مشـهد (القُبلة) بين حبيبين على مرأى ومشهد الجميع، وهو ما لا يمكن التفكير فيه في البيئة التي نشأت فيها إشـراقة (الفتاة الشـرقية) المحضـور عليها حتى أن تعلن عن مشـاعرها، فما بالك بقبلاتها لحبيبها، مع أنها لم تنشغل بهذا الفارق الثقافي الكبير بين مجتمع الشرق/ ومجتمع الغرب، إلا أن رصـدها لهذا المشـهد ذو دلالة لا يمكن تجاهلها، ولا سـيما وأننا أمام كتابة أنثوية مسـيّجة بسـياج الحذر والانتباه الشـديدين لما تكتب، ويرى بعض النقاد ((أنّ كاتبات السـيرة الذاتية من النسـاء يخشـين أن يعرضـن حياتهن على الملأ بطريقة مباشـرة، فالمرأة، في رأي البعض، لا يجب أن تعرض حياتها الخاصـة على العامة، فنشـر ما تكتبه عندما تتحدث عن نفسـها ليس إلا خرقاً للتقاليد، وتحدياً للممنوع، ومن الصعب في رأي البعض السماح لها بالاعتراف في سيرتها الذاتية، خاصة إذا تم نشرها وهي حية ترزق))[38]

لذا كانت تجارب الحب عند إشـراقة مصـطفى، تمر مروراً عابراً، وتذكرها بين الحين والآخر، وكأنها تذكرها على اسـتحياء. وهي تجارب حب بريئة لا يشـوبها أي عيب أو انتقاص، ولا مغامرات. غير أنّ كتابة المرأة الشـرقية لسـيرتها الذاتية، وتعبيرها عن تجربتها الحياتية والاجتماعية والثقافية بعامة هو نوع من أنواع تأكيد الوجود، وتحقيق الرغبة في الظهور وكأنها تقول (ها أنا ذا) لم أعد مختبئة، مغطاة، مسـيّجة.. كما يريد أن يفرض علي المجتمع ! فالكتابة أحد أنماط أو صـور التحدي، ((تحدٍ للتقاليد التي تمنع المرأة من الكتابة، والكتابة عن حياتها بصـفة خاصـة، فبالكتابة تتحرر المرأة، وبالكتابة يرتبط الفرد بالجماعة، فتعرض المرأة من خلال تجربتها الشـخصـية حياة مجتمعها من وجهة نظر أنثوية مع النسـاء الأخريات، ومن أجلهن، والكتابة بالنسبة للمرأة هي محاولة للبحث عن الهوية، وتأكيد الذات)) [39]

بل هي ممارسـة للوجود كي يتأكد الآخر (الذكوري) أنه لا يمكن إقصـاء هذا الكائن (الأنثى) وتهميشه، وحبسه في (الحريم) إلى الأبد.. ومن هنا يمكن تفسير ما حدث مع إشراقة في هجرتها إلى النمسـا برغم كل القسـوة التي واجهتها وسـتواجهها في المهجر، إلا أن هذا كان فعلاً ضـرورياً لتعلن لمجتمعها، الذي لم يوفر لها الوظيفة التي تتناسـب مع مؤهلها، ولم يسـمح لها بالعمل السـياسـي الحر، بل هذا المجتمع الذي لم يتح لعائلتها القدرة على بناء غرفة اسـمنتية تلم شـملهم !! مما دفعها إلى العمل في تنظيف البيوت لتوفير ما يقيتها، وإرسـال القليل المتبقي لأسـرتها، دون أن تنسـى أجرة الغرفة التي تؤويها: ((أنا بنت المعاناة والاجتراحات العميقة، بنت الفجر والنساء المكافحات، أمهاتي بائعات الكسرة (الخبز) بالسوق الصـغير في كوستي (قريتها) التي صـنعتني من طين وحزن وإرادة، وجعلتني أحلم، وأعمل لأجل حلمي بأن أقف يوماً أمام

هؤلاء الطلبة النمساويين كمحاضرة أدرسهم من تجاربنا، من تاريخ شموسنا، وعصارة أناشيدنا، وها قد كان !))[40]

لكن قبل ذلك كان لا بد من تجرع علقم الكفاح في مثل هذه الحياة الذي أوصلها إلى حالة (انهيار عصبي حاد) ولكنها تصمد وتتجاوز ذلك لتواجه انهياراً من نوع آخر (انهيار عنصري) فقد عنونت الفصل الثاني عشر بـ (الوعي الفاعل: لوني في مواجهة العنصرية) حيث تقدّم لنا قراءَة عميقة للتمييز العنصري الذي يمارسه الأوروبيون تجاه الملونين، من خلال ربط هذا كله بما عانته بلادنا العربية من استعمار واستغلال بشعين: ((تجاربي المريرة التي عشتها حين واجهتني العنصرية بشراسة، لا يمكن قراءَتها إلا في إطار ما تعرضت له بلادنا النامية من استغلال لمواردها منذ استعمارها وإفقارها، ومنذ تلك النظرة الدونية (لرجل إفريقيا المريض) والصور النمطية المستقاة من ألف ليلة وليلة، صورة إفريقيا في المناهج الدراسية وفي الأفلام، وفي الدعايات الانتخابية، جميعها لا يمكن فصلها عن معايير المركزية الأوروبية في النظرة إلى الآخر الغريب))(41)هذه المركزية التي أقلقت الكثير من مثقفينا، وربما كانت المرأة أكثر قلقاً ورعباً، فهي التي واجهت عدة (مركزيات) لا مركزية واحدة فحسب.

أنا امرأة...إذن أنا موجودة:

وفي هذا الفصل من سيرتها تدلل إشراقة المرأة/ الأنثى/ الكاتبة على الوعى الفاعل للمرأة العربية بقضية التمييز، وهي الأشد إحساساً بقسوة هذا الأمر وشدة وطأته، فطالما عانت التمييز الداخلي، في مجتمعها الذكوري الأبوي، وها هي تعانيه على المستوى الخارجي (الأوروبي/ الأفريقي) (الأبيض/ الأسود) فالمهاجرون واجهوا كثيراً من الظلم والإقصاء والتهميش الاجتماعي في النمسا، وكان هذا الأمر ملموساً بوضوح، برغم احتجاجات جمعيات إنسانية وحقوقية عديدة. إلا أن المواقف العنصرية ضد اللون واللغة والحجاب وغير ذلك ظلت مستمرة:((يد تلمس كتفي، فيها من حنان تلك البلاد، بلادي، مدّت لي منديلاً ورقياً معطراً، وقالت لي إنّ الغربة في بداياتها قاسية، وبالرغم من أنها من بلاد ليست بعيدة من هنا، ولكنها تحن إلى هناك، الشابة اليوغسلافية التي لن أنسى رقتها، ومحاولاتها الطيبة لتهدئتي، وقد نجحتْ، رافقتني حتى صعدتُ إلى القطار، تمنت لي رحلة سعيدة، وإقامة أسعد في فيينا، كنت منهكة، وقواي خائرة، جلست في أقرب مكان، بعد أن قلت: السلام، نهض الرجل المسنّ من مكان منفعلاً، وغاضباً، وهو يقول إنه لن يجلس في عربة فيها قرد من إفريقيا!!)) [42]

هذا أحد النماذج المهينة الواضحة على ماعانته اشراقة، وغيرها من المهاجرين من تفرقة عنصرية قبيحة، وثمة مواقف أخرى كثيرة على هذا النمط، هذه المواقف التي سببت لها ما يشبه

العقدة النفسية، لكنها كانت في الوقت نفسه بمثابة الوقود الذي يشحن روحها بضرورة الاّ تستلم، وبضرورة أن تصنع ذاتها، وتحقق طموحاتها.

يؤسس هذا الجزء من السيرة الذاتية لوعي عميق بالذات والمهجر والوطن؛ لذا تمتليء سيرة (الدانوب يعرفني) بالحديث عن الوطن على الرغم من أن الكاتبة تعيش خارجه، لكن وعيها لا ينسى ما يعانيه وطنها من فقر، وعوز، وجهل، وتخلف، وظلم سياسي واجتماعي، وغير ذلك مما تجعله اشراقة مصطفى محط نقدها وتفكيرها.. في اللحظات التي تحيا فيها قهر الغربة، وألم التمييز العنصري في المهجر:((تعرضت إلى ما هو أقسى من ذلك، حين عدت في مساء أحد الأيام من الكلية إلى هولابرون (منطقة) بالقرب من المبنى اقتربت مني عربة بسرعة مخيفة، ابتعدت مرتعدة بالكاد كنت أصدق أنها لم تدهسني، شباب في سن صغيرة قاموا بالبصق على وجهي وملابسي بالخمرة التي كانت تملأ أفواههم، رشوني بها، وانطلقت العربة تسبقها قهقهاتهم التي ظلّت تلاحقني لزمن طويل، وجعلتني انهض من النوم فزعةً ليالي كثيرة))[43]

فهل ثمة أشد وأقسى من هذا القهر؟! ولطالما استعادت إشراقة ما قرأته في رواية (الجذور) ففيها عن التمييز العنصري، والرق، ما يمثل المواساة لها ولكثير من المهاجرين أمثالها، ممن عليهم أن يصبروا ويتحملوا من أجل تحقيق غاياتهم وطموحاتهم يوماً ما. لكن على كل مهاجر، ولا سيما مهاجري افريقيا أن يصمدوا أمام الصور النمطية التي شكّلتها ذهنية الأوروبيين، في فترة ما بعد الاستعمار، وخاصة اليمين النمساوي المتطرف في النمسا.

وبالفعل يتحقق شيء من طموح إشراقة، فها هي تحمل الماجستير وتعمل في الجامعة تاركة خلفها تنظيف الشقق والعمل كخادمة هنا وهناك. ولكن نزعة العنصرية لا تزال مستمرة، وتستمر إشراقة بطموحها وأهدافها، وتسجل بحثها للدكتوراة بهد أن حفرت بأظافرها الصخر. وها هي تركز بحوثها على العنصرية، ومعاملة النساء وقضايا البيئة والمهاجرين والملونين السودانيين وغيرهم، وتصبح محاضرة في جامعة فيينا أيضاً، لتتابع كل هذه الهموم، بحثاً وتدريساً، بوعي متقدّم ومنهجية ((تأبى فكرة العطف والشفقة، وتقوم على شجرة التضامن الحقيقي، التضامن الواعي لأجيال جديدة، تعي تماماً أن ثروة العالم وسلطته تحتاجان إلى إعادة توزيع، إذ يوجد ما يكفي من الثروات في العالم لجعل الطفل في السودان (أو الهند، الصومال، بروندي، سوريا، العراق، فلسطين، المكسيك.. إلخ) يذهب إلى المدرسة صباحاً بعد كوب حليب دافيء، يكتب ويرسم ويعزف على الجيتار أو يدق على الطبل))[44]

ولا شك أن هذا الفكر الاشتراكي أو سمّه ما شئت لم يأت من فراغ، إنما هو نتيجة تجارب مؤلمة، ووعي عميق بالذات والعالم، يمثل درجة عليا من درجات النضج الفكري لامرأة عربية استطاعت، من خلال الكتابة، تقديم نموذج مستنير للمثقف العضوي الذي يقف عند مأساة

الذات (الفرد) وتجاربها، لا لكي يتحوصـــل حولها، إنما لكي ينطلق فيها إلى مأســـاة الآخر (الجماعة) ممثلين بالوطن، والمهاجرين، وغيرهم وغيرهم.

لذا بدأت ثمار هذا التفكير تؤتي أُكلها عندما نالت جائزة (هيرتا برامر) للمرأة الفاعلة، وبدأت تترجم أعمالاً أدبية عربية للألمانية، في سـبيل المسـاهمة بتغيير الصـورة النمطية للعرب لدى الغرب، ولأجل ذلك انخرطت اشـراقة بأنشـطة نسـوية وإنسـانية عديدة، وعملت على كتابة العديد من البحوث في سـياق أنشـطتها الأكاديمية حول الحقوق والعدالة الاجتماعية والمسـاواة وغيرها ((للمرة الأولى تقود النساء السود العمل بفاعلية، وتحول غضبنا إلى عمل متواصل ليلاً ونهاراً... في بلد تحكمه الديموقراطية، لمناقشـة الأمر على المسـتوى البرلماني، كل ذلك ما كان سيحدث لولا هدير صوتنا وغضبنا))[45]

كل ذلك في سـبيل خلق سـياسـة هجرة عادلة وفي سـبيل إقناع المجتمع بالمسـاواة بين البيض والسود، والتخلي عن العنصرية، وتبعات الإسلام السياسي الذي يوصم به كل من جاء من بلاد الإسلام: ((في الهجرة إيجابيات لا حدّ لها، خاصة إذا انفتحنا على المجتمعات الجديدة، وهذا يعني تحدياً كبيراً لكنه يمنحنا الفرصـــة لمواجهة الذات، وســـؤالها عن كينونتها. التمييز لا يحدث فقط في أوروبا، فعلينا مواجهة الذات في المنطقة العربية أيضـــاً، مواجهة صـــورتنا في الإعلام، وفي الأفلام، وفي الذهنية العربية))[46] وهذه مهام وجدت إشـراقة نفسـها في مواجهتها، فكما كان على فدوى طوقان أن تواجه هموم الذات وهموم الوطن في سيرتها الذاتية بجزأيها (رحلة جبلية.. رحلة صـعبة) و(الرحلة الأصـعب) تجد اشـراقة نفسـها في مواجهة أوجاع الذات الفردية، وأوجـاع الوطن الجمـاعيـة، ففي (أنثى الأنهـار) و (الـدانوب يعرفني) يســـير الهمّـان (الـذاتي والجمعي) جنباً إلى جنب، تتحدث عن ذاتها، نجاحها فشلها، عشقها، جنونها، وفي الوقت نفسه، تتحدث عن أبعاد سياسية واجتماعية، من فقر وتسلط، وجهل وغير ذلك.

الحس التراجيدي:

هكذا هي سـيرة المرأة العربية الذاتية، تشـتت ومراوحة بين كيانين، وفي هذا أيضـاً ظلم للذات حيث تصـادر الأنثى حلمها وعاطفتها، وفرحها بجسـدها وجمالها لتقفز إلى الجانب الآخر، أو الضـــفة الأخرى من النهر، وكأني بها تهرب من اعتبارها جســـداً في نظر المجتمع الذكوري حيث ((تتأكد المدلولات الخاصـــة للجســـد عند الأنثى انطلاقاً من الدور الهام الذي بات يلعبه كمنطلق خاص للشـعور بالتمايز والاختلاف، وتشـكيل هوية الذات، ولا سـيما بعد أن ظلّ الجسـد هو المسـؤول عن حمل القيم من وجهة نظر المجتمع، وأصـبح مسـاوياً للهوية الفردية من وجهة نظر النساء، مما سهّل على الفكر الذكوري السائد اختزال المرأة في جسدها))[47]

فكانت هذه المسـألة أيضـاً محل معاناة عند اشـراقة، كما أوضـحت في الجزء الأول من سـيرتها، حين سـاومها أحد أثرياء بلدها على توفير تذكرة الطائرة لها مقابل (موعد) مع الجسـد: ((إلا أن حسن الظن انهار حين قدّم لي دعوة للعشاء في فندق معتبر، وسوف يشتري لي فساتين أنيقة وأحذية إيطالية، وشنطة يد.. خرجت وأنا على يقين بأني لن أعود مرة أخرى))[48]

وعلى الرغم من مرورها السـريع عند احتفاء الآخر بجسـدها إلا أنها احتفت بهذا الجسـد في لحظات أخرى مغايرة حينما تحدثت عن الختان، وعن بروز نهديها ونظرتها إليهما نظرة فرح وشعور بالنضج الأنثوي، لكنها فوجئت بوالدها ينهرها ويأمرها بأن تمشي بطريقة لائقة، لا شك أن جسـد الأنثى حاضـر في ذهنيتها لكن دوامة الموضـوعات الحياتية الأخرى طغت على ذلك كله، فكان هذا الظلم للذات والتضحية بها في سبيل تلك الموضوعات من ناحية، وفي سبيل أن تكتمل السـيرة الذاتية وفق الكتابة الانثوية المألوفة، التي تحرص على إرضـاء المجتمع بمواضـعاته وتقاليده التي لا تسمح بأن يأخذ جسد الأنثى من سيرتها مساحة تزيد على المألوف والمعروف، ومن هنا تبدو تأملاتها لموضوع الجسد مشتتة، وبعيدة عن أن تكوّن قصة مكتملة، لكننا يجب أن نفهمها في سـياقها، أعني سـياقها الاجتماعي والأدبي (الإبداعي) كي نصـل إلى ((وعي مختلف تنامى وجوده مع تصـاعد الحركات النسـوية والنقد النسـوي في العالم، ونتج عنه كتابات احتلت فيها المرأة مكانة بارزة على خارطة السـرد بوعي جديد، ورؤية أنثوية للعالم تختلف عن الرؤية الذكورية، ونقد المجتمع الأبوي وقيمه المهترئة، واحتفاء بخصـوصـية المرأة وعقلها وجسـدها، ورفض للنظرة التي ظلّت زمناً طويلاً تنظر إلى تلك الخصـوصـية على أنها انتقاص لها))[49] لكنها تمكنت من تغيير هذه النظرة النمطية، واقتحام عوالم الحياة والمواجهة، بما لا يقل عنفواناً وصرامة عما يقوم به الذكور، وكأن الأنثى صارت تصنع ذاتها، وتقدّم أناها، دون حاجة إلى سند ذكوري يحيط بها، فتحقق بذلك هويتها وكينونتها. وهو ما تعزوه إشـراقة مصـطفى إلى نور المعرفة، وفضاء الكتب: ((هويات، هويات تتصالح في فضاء القلم، الكتب، الكتابة.. الكتب التي فتقت ذهني على شـموس من كل بلاد العالم، حيث أجد نفسـي بلا قيود، بلا متاريس.. وانخرط حتى هديل القلب وأمامي أفق الإنسانية العريض، الأفق الذي يؤكد أن الأرض وطن للجميع، وأن الحدود رسـمها الإنسـان))[50] برغم كل الحنين لأرضـه التي عليها نشـأ وإليها يحن، لذا اتخذت كتابة السـيرة الذاتية عندها صـيغة النص الشـعري، المفعم بالعاطفة، والمحبوك بالإيقاع، والنزعة الإنسـانية التي لا نجد مثيلاً لها إلا عند مفكر وأديب كإدوارد سـعيد، الذي يتبدى فكره في قولها: ((الوطن؟ وطني الناس أينما كانوا وكيفما وجدوا.. هل يجنبني هذا ورطة الحنين؟ لا أعتقد))[51] و((الوطن حالة وجدانية، ماء الروح التي تجري في القلب، القلب هو دفق الوطن، حين تفوح رائحة المحلبية والحنة، ويعلو صوت محمد حسن بخيت: ست البيت بريدها براها.. ترتاح روحي

كلما اطراها)) [52] والوطن كذلك ((في أحلام الناس المشـــروعة، في رماد الحروب وقبحها، في حنين الأرض للسلام، فيروز في ليل (فيينا) الصامت، في صباحاتها: راجعين ياهوى..))[53]

وفي مدينة ساندلتنهوف تقيم إشراقة، على ذكريات النضال ضد النازية، المدينة التي قالت: لا. والتي تزداد فيها صداقاتها وعلاقاتها مع المزيد من المهاجرين والمهاجرات، والمزيد من الأنشطة النسائية والقراءَات الشعرية، والمزيد من الاقتراب من ذكريات أدباء وشعراء وفلاسفة عالميين.. والأهم من ذلك علاقتها بـــــ (إلزا) الفتاة المسيحية التي كانت تسارع لوضع سجادة الصلاة في غرفة إشراقة كلما زارت بيتهم: ((ومن خلال إلزا وأسرتها أحببت المسيح أكثر، من خلالها عرفت قيمة أن تكون إنســاناً بلا تطرف، وبلا إجحاف في حق الآخر، وبمحبة لا تحدها حدود... لا يمكن أن أختصر إلزا بهذه السطور، فهي إنسانة بامتداد المدى، إلزا أحد ملامحي، وجزء من هويتي: الإنسانية المنفتحة على الكون الكبير!)) [54]

في الفصـــل العشـــرين وما بعده تتحول ســيرة (الدانوب يعرفني) إلى ما يشـــبه الرواية التراجيدية التي تلخص فيها إشراقة مصطفى عذابات الدنيا، بدءاً من إصابة والدتها بالشلل، ثم موت جدها وجدتها: ((ما دام الموت ســـؤال أزمتي الوجودية لم أفارق شـــكل جدتي وعينيها المسبلتين على شجن فراقي وغيابي عنها، وصوتها الباكي يحاصرني، ليلتها توسدت ثوبها الذي أهدته لي ليلة وداعي لها. بكيت؟ لا، لم أبكها حتى الآن، كنت فقط كغريبة تنتظر الرحمة))[55]

أما الأزمة السورية، والسوريون المهاجرون إلى النمسا فلهم معها قصة أخرى، مأساة جديدة: ((فاضت المخيمات باللاجئين، وهنا بدأت المعضلة، لم تشهد النمسا جموعاً من البشر يطرقون أبوابها كما حدث عام2015، وسوريا ترقد تحت الرماد.. في الوقت الذي تجلت فيه هذه الملحمة الإنسانية، وبرز تجاوب المجتمع النمساوي مع هذه المحنة، كان حزب الحرية المتطرف يشن هجومه، ويطالب بقوانين صارمة لإغلاق الحدود))[56]

مسك الختام:

كل ذلك بدوافع الاســـلاموفوبيا والخوف من تأثر المجتمع النمســـاوي بهؤلاء المهاجرين المسلمين، تحكي إشراقة عن نشاط منقطع النظير لها ولأصدقائها في معاونتهم، والبحث عن دعم شعبي لإخراجهم من مأساتهم.. عاشت إشراقة تفاصيل عذاب جديد، تطوعت، عملت، شاركت بدافع إنساني.. كل ذلك دون أن تنسى دورها كمبدعة ذات رسالة، تكتب، وتشارك في تحرير بعض الصحف، وفي دورات الكتابة الإبداعية، تصدر مجموعة شعرية (أنثى المزامير)

عناوين أعمالها مسكونة (بالأنثى)! بالشعر، بموسيقى اللغة، تكتب تقرأ، تترجم، تمارس فعل الحياة بكل تفاصيلها وتختم سيرتها الذاتية (الدانوب يعرفني) بفصل (نعم أنا هنا...) إنها (الهوية) التي سكنتها طيلة سنوات التشرد والبحث عن الذات حتى حصولها على درجة الدكتوراه،

أربعة وعشرون عاماً انقضت ((ما تعلمته كان من الحياة، من الشارع، من الناس كثيراً.. وجُرحت أكثر)) [57] ولم تكن هذه هي النهاية، بل النهاية في نظرها: ((ليس أمامي سـوى أمامي))[58] لأن الحياة ذاتها ماضية دون توقف!

الهوامش والمصادر:

1- اشراقة مصطفى، أنثى الأنهار: من سيرة الجرح والملح والعزيمة، دار النسيم، القاهرة، ط1، 2015، ص ص17-18

2- نفسه، ص23

3- نفسه، ص ص 25-26

4- نفسه، ص ص 26-27

5- نفسه، ص27

6- نفسه، ص ص 27-28

7- إيهاب النجدي، أدب الاعتراف: مقاربات تحليلية من منظور سردي، دار المعارف، القاهرة، 2017، ص 183 – 184

8- إشراقة مصطفى، أنثى الأنهار، ص37، 38، 39

9- نفسه، ص43

10- نفسه، ص50

11- نفسه، ص59

12- نفسه، ص65

13-خالد فؤاد طحطح، السيرة لعبة الكتابة، كتاب مجلة العربية، ع192، 1433هـ، الرياض، ص196

14-نفسه، ص82

15- مروة النجار، الفنتازيا والمسؤولية الإثنية في السيرة الذاتية: الجدل حول الأدب الإثني في الولايات المتحدة، مجلة ألف، الجامعة الأمريكية في بيروت، عدد 31، 2011، ص 84

16- نزيه أبو نضال، حدائق الأنثى: دراسات نظرية وتطبيقية في الإبداع النسوي، دار أزمنة، عمان، 2009، ص20

17-إشراقة مصطفى، أنثى الأنهار، ص111

18-نفسه، ص125

19- نفسه، ص136

20- نفسه، ص139

21- نفسه ص140

22- نفسه، ص142

23- نفسه 143

24- أمل التميمي، السيرة الذاتية النسائية في الأدب العربي المعاصر، المركز الثقافي العربي، ط1، 2005، ص 59 -60

25-إشراقة مصطفى، أنثى الأنهار، ص151 – 153

26- نفسه، ص 157

27-نفسه، ص164

28-نفسه، ص164

29-نفسه، ص165
30- نفسه، ص 169
31- نفسه، ص181
32-نفسه، ص 190
33-وجدان الصائغ، الأنثى ومرايا النص: مقاربة تأويلية لبلاغة الخطاب النسوي المعاصر، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، دمشق، ط1، 2004، ص5
34- إشراقة مصطفى، الدانوب يعرفني: الوجه الآخر لسيرة الأنهار، الآن ناشرون وموزعون، ط1، 2017، ص 31-33
35- نفسه، ص58
36-نفسه، ص92-93
37- نفسه، ص103
38-غرّاء مهنا، السيرة الذاتية في صيغة المؤنث، مجلة البلاغة المقارنة ألف،بيروت، ع22 ،2002، ص45
39- نفسه، ص54
40-إشراقة مصطفى، الدانوب يعرفني، ص112
41- نفسه، ص169
42-نفسه، ص172-173
43-نفسه، ص175
44-نفسه، ص205
45-نفسه، ص219
46-نفسه، ص233
47-مفيد نجم: الجسد في السرد النسوي: استعادة القيمة الغائبة للذات، مجلة نزوى، عُمان، ع37، ص19
48-إشراقة مصطفى، أنثى الأنهار، ص181
49-أسماء معيكل، الجسد الأنثوي والأهواء: دراسة ثقافية، مجلة فصول، ع99، 2017، ص563
50-إشراقة مصطفى، الدانوب يعرفني، ص236
51- نفسه، ص247
52-نفسه، ص252
53- نفسه، ص253
54- نفسه، ص253
55-نفسه، ص305
56-نفسه، ص314
57- نفسه، ص346
58- نفسه، ص348